الإصلاح الحضاري في فكر مالك بن نبي

د.قادري محمد الطاهر.

كاكي عبد الكريم.

جامعة زيان عاشور الجلفة.

ملخص :

إن المتتبع لحالة المجتمعين العربي والإسلامي وما يعانيانه من تخلف وتدهور، واضطراب وركود، سوف يدرك ما آلت إليه هذه الأوضاع من درجة متعاظمة الخطورة، ولذا تفطن بعض المفكرين لهذا الخطر وحاولوا إعطاء بعض الحلول لإخراج المجتمع العربي الإسلامي من الأزمات التي يتخبط فيها، والمفكر الجزائري مالك بن نبي(*) من أولئك الذين اتسموا بالوعي وشعروا بالخطر فدرسوا الأوضاع بصورة كلية انطلاقا من رؤية حضارية شاملة ومتكاملة، إذ كانت جهوده منصبة لبناء الفكر الإسلامي الحديث وفي دراستة للمشكلات الحضارية، وكان بذلك أول باحث ومفكر حاول أن يحدد أبعاد المشكلة وعناصرها الأساسية في الإصلاح من خلال البحث عن أطر علاجية للمشكل الحضاري الذي تعانيه الأمة الإسلامية، فسعى لبلورة المشروع الثقافي الفكري الذي يقاوم خطر التحلل والاندثار الحضاري. من تقييم العقليات المتحجرة والذهنيات المتخلفة لتتحول إلى عقليات مبدعة خلاقة وتجلى ذلك بوضوح في مصادره المعنونة في سلسلة " مشكلات الحضارة " حيث اعتبرت الثقافة عاملا مهما من عوامل النهوض بالحياة الاجتماعية وأن كل مشكل حضاري في جوهره مشكل ثقافي لأن الثقافة هي روح الحضارة ...

Abstract

The one who follows the situation of the Arabic and Islamic societies and what they suffer from retardation, degradation, perturbation and deflation, will understand to which level these situations reach a degree of danger, some thinkers were a worry about this dangerous situation at this earlier stages, endeavoured to find some solutions to help our societies to overcome these problems;

MALEK IBN NABI is one of those thinkers who studied the situation completely starting from a wide integrated civilized view, his efforts was mainly to build the recent Islamic thinking and in the studding of civilization problems and by this, he was the first researcher and thinker who try to identify the dimensions of the problems, and its basic elements in the reform, through searching of remedy frames for the civilization problem which the Islamic nation is suffering from, so he tried to clarify the thinking cultural project which withstand the danger decomposition and erosion of civilization and make a great change in the retarded morals to creative ones, this aspect was clearly identified in his series "problems of civilization in which he considered the culture as an Important factor among the factors of revelation of social life, and any civilization problem because the culture is the spirit of civilization.

أ- مفهوم الحضارة:

الحضارة كباقي مصطلحات العلوم الاجتماعية كلمة واسعة ذات معنى ودلالات مختلفة فيطلق عليها في: الفرنسية civilisation وفي الإنجليزية civilization ".أما في اللغة العربية هي الإقامة في الحضر ، بخلاف البداوة وهي الإقامة في البداوي ".[1] أي أن أصلها مرتبط بالاستقرار في الأرض.

ولفض الحضارة قديم الاستعمال وأول من أعطاه المعنى القريب إلى المعنى الحاضر هوابن خلدون (732-808 هـ) حيث قال في الحضارة: " هي نمط من الحياة المستقرة ينشأ القرى والأمصار، يضفي على حياة أصحابها فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة. وإدارة شؤون الحياة والحكم وترتيب أسباب الراحة وأسباب الرفاهية " وحسب المفهوم الخلدوني، فالحضارة هي ما يزيد عن الضروري المتمثل في المظاهر المادية قصد إشباع الحاجات الإنسانية في مجتمع ما إضافة إلى ذلك عامل الاستقرار أوالسيادة أوالملك اللذان نعتبرهما الرحم الذي يمكن أن تنموتزدهر منه الحضارة، كما يربط هذه الأخيرة بالعمران حيث كلما زاد العمران اكتملت الحضارة وعليه فابن خلدون يميز بين ما يسيء إلى العمران البدوي والعمران الحضاري، إلى أنه يعتبرهما طوران طبيعيان في الوجود وأن البداوة أقدم وهي أصل الحضارة، وهذه الأخيرة غاية البداوة.

أما الحضارة بالمعنى الحديث تعني مجموعة: " المفاهيم الموجودة عند مجموعة من البشر، وما ينبثق عن هذه المفاهيم من مثل وتقاليد وأفكار ونظم وقوانين تعالج المشكلات المتعلقة بأفراد هذه المجموعة البشرية، وما يتصل بهم من مصالح مشتركة أوبعبارة مختصرة جميع مظاهر النشاط البشري الصادر عن تدبير عقلي.[4]

كما أصبحت هذه الكلمة تطلق على نماذج من النظم السياسية وأساليب الحكم والخصال الحميدة.

ب- مفهومها عند مالك بن نبي:

يبنى مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي على أن مشكلة أي شعب في جوهرها هي مشكلة حضارية، فالحضارة عنده شرط ضروري في كل تجمع بشري وغاية كل مجتمع هي الوصول إلى الحضارة، فهي توفر كل ما هومادي ومعنوي للرقي والازدهار نحوالأفضل، وبهذا المعنى تعتبر هي أساس الحرية والحماية حيث تحصن حياة الفرد وتؤمنها كما تحافظ على شخصيته سواء كانت دينية أووطنية، وهذا ما أكده بن نبي في قوله،" الحضارة هي مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا أوذاك من أطوار نموه ". [5]

والحضارة عادة ما تنتج في المجتمعات عن طريق حركة وتغير في مجال الفكر والاقتصاد، هذه الحركة تضمن التوازن بين الجانب الروحي والمادي، وهذا خلافا للجماعات الساكنة التي تعيش في حياتها من دون غاية، فهي حسبه تصبغ بصفة التطور، لكن لا ترقى إلى أن تكون أكثر من مجتمعات بدائية تخضع لقانون الغاب الذي يمكن أن يؤدي إلى عدم تحقيق إنسانية الإنسان، وبهذ يكون الإنسان يعيش مرحلة ما قبل التحضر، فيقول بن نبي في ذلك " إنني أؤمن بالحضارة على أنها حماية للإنسان تضع حاجزا بينه وبين الهمجية " . [6]

إذا كانت الحضارة من صنع الإنسان عبر التاريخ بعد أن تمده الطبيعة بالطاقات التي يستغلها أحسن استغلال ولتوجيهها نحوأهداف محددة فإن التاريخ هوأيضا من يصنع المجتمع:" وصناعة التاريخ تتم تبعا لتأثر طوائف إجتماعية ثلاثة:

1- تأثر عالم الأشخاص.

2- تأثير عالم الأفكار.

3- تأثير عالم الأشياء.

لكن هذه العوامل لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج أيديولوجيا من عالم الأفكار، ينم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص ... وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها، وهي التي تنسجم في صورة حضارة يعد ضرورة أيضا".[7]

إن العناصر الضرورية المشكلة للحضارات والتي تحدث نهضة حضارية يحددها بن نبي في المعادلة التالية: الحضارة = إنسان + تراب + وقت. [8]

أولا الإنسان:

إن الاهتمام الكبير الذي شغل مالك بن نبي هوالإنسان في صورته الفردية والاجتماعية، إذ أولاه عناية كبيرة واختصر الحديث على العنصرين الأخيرين (الوقت – التراب)، فلا الوقت ولا التراب يكفيان لقيام حضارة وفي معادلته الحضارية اعتبر أن الإنسان هوالذي يحدد القيمة الاجتماعية من خلال حركته، فحركة الإنسان تؤدي إلى ازدهار الحضارة في المجتمع، إذ كثيرا ما نجد مجتمعات تزخر بوجود نشاط الإنسان وهذه الحركة تظهر في المجتمع من خلال ثلاثة مؤثرات: الفكر، العمل، المال، وفي الجانب الأخر كثيرا ما نجد مجتمعات ساكنة ناتجة عن سكون حركة الإنسان مما يؤدي إلى الخمود وإسدال الظلمات على ذلك المجتمع ومن خلال ذلك: " فالإنسان إذ هومحور الشرط الأساسي لكل حضارة وأن الحضارة تؤكد دائما الشرط الإنساني، فالإنسان إذن محور الفعالية في حركة الحضارة فعليه مدار الاختيار وعطاؤه في إطار حضارته - وبالتالي في حضارة الإنسانية ككل – محدد بالعقل الفكري والتكوين الثقافي المتأصلين في بيئته الحضارية ". [9]

ثانيا التراب:

مادة جامدة لذلك على الإنسان تحريكه وتطويعه ويكيفه حسب الفوائد والمتطلبات الاجتماعية، وبذلك نخص القيمة الاجتماعية المستمد من قيمة ملكية ، فعندما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة، يكون التراب غالي القيمة وحينما تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط، ويستشهد بن نبي: "المعجزة اليابانية نظرا لما قدمته من تقدم حضاري رغم ضعف تربتها (جبال – جزر)".[10]

ثالثا الوقت :

وليس المقصود به الزمان بل قيمته لدى الإنسان فهوثروة في مجال معين قد يتحول إلى العدم في مجال أخر، وتظهر قيمته خاصة في أوقات الخطر التي تستيقظ فيها الشعوب من أجل المحا فضة على الذات، فالوقت لا يجب أن يضيع في حياتنا ولابد من استثماره في أمور هامة وفعالة لأن حصيلة ذلك كل وقت هائل صالح للحياة الإسلامية والمسلمين.

وكما أن الاستغراق في العمل يمكن أن يكون له نتائج سلبية على جوانب أخرى والإفراط في تقديم الوقت أيضا له نتائج سلبية كما هوالحال في الغرب الصناعي وأحيانا لا يكون الوقت مهما من أجل الثراء أوالمحافظة على الذات، بل مهما لذاته فهولا يعوض ولاتستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة أوأن تستعيدها إذا مضت، والعالم الإسلام يعرف شيئا يسمى الوقت، لكنه الوقت الذي ينتهي إلى العدم لأنه لا يدرك أجزاء الوقت من ثانية ودقيقة وساعة فهولم يكتسب بعد، مفهوم الوقت الحقيقي، والتربية هي الوسيلة الوحيدة لكي يتعلم قيمة هذا الأمر، ولن يحدث ذلك إلا بعد مرحلة تجريبية من خلالها نعلم الطفل والمرأة، والرجل، تخصيص نصف ساعة يوميا لقضاء مهمة منتظمة وفعالة، وفي نهاية المطاف نجد حصيلة هائل من ساعات العمل لصالح الحياة الإسلامية، وسيثبت نصف ساعة هذا عمليا فكرة الزمن في العقل الإسلامي، مما يؤدي إلى زيادة التطور الفكري والروحي والثقافي وهذه حسبه هي الحضارة،

ويورد مالك بن نبي التجربة الألمانية التي خرجت من الحرب العالمية الثانية وقد تحطمت كل نظمها وأجهزتها الإنتاجية ولم تبقى لها سوى العناصر الثلاث، الإنسان، التراب، الوقت، إلا أنها في غضون عشر سنوات أنشأ شعبها صناعات ضخمة والسبب في ذلك هوأن ألمانيا فرضت على شعبها العمل لمدة ساعتين إضافيتين بعد العمل اليومي تطوعا لصالح المصلحة العامة وهذا هوسر نجاحها، ومن هنا يمكن إدراك قيمة الوقت مباشرة.

يمكن دراسة دور الفكرة الدينية في بناء الحضارة عن طريق منهج يقوم على معطيات التاريخ وفق مقاييس التحليل النفسي وهذا المذهب حسبه كفيل تبيان دور الفكرة الدينية في توجيه سلوك الفرد وتنظيم غرائزه لتبين أهمية الدين في بناء الحضارة، يقوم مالك بن نبي بتحليل دورتين من أدوار الحضارة هما الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية فالعرب مثلا قبل نزول القران لم تكن سوى قبائل بدوية في صحراء قاحلة وكذلك لهم العوامل الثلاث، الإنسان، التراب، الوقت، لكن كانت مكدسة وجامدة يعني هذا أنه لابد من أن يربطها الدين الذي يرشد ويدفع السلوك والأخلاقيات لبناء الحضارات، كذلك هوالحال بالنسبة للمسيحية نظرا لوجود تشابه تاريخي بين كلتا الواقعتين فكلاهما يمرا بحالات تطورية ثلاث هي: الميلاد، الأوج، الأفول وتسمى بظاهرة الحضارة. [11] حيث أنه علينا أن ندخل في كل طور من أطوارها الفكرة الإسلامية لاعتبارها الأصل والإنسان المسلم باعتباره سند هذه الفكرة.

فالفرد عند النقطة الصفر يسمى عند بعض المؤرخين المسلمين "الفطرة" والإنسان في هذه المرحلة يكون طبيعيا، وعند دخول الفكرة الدينية يتم إخضاع الغريزة وهذا الإخضاع ليس معناه القضاء عليها وإنما تنظيم وضيفتها، لأنها لم تلقى بل أخضعت لقواعد نضام معينة، وعندما تستخدم الفكرة الدينية إخضاع الغرائز بمعنى كبتها دون القضاء عليها حينها يمارس الإنسان حياته الجدية حسب قانون الروح، الذي ظهر مع بلال بن رباح عندما أخضع

للتعذيب إذ كان يقول أحد، أحد وهنا صوت الروح هوالذي تكلم أما صوت الغريزة فقد صمت، كذلك المجتمع الإسلامي الذي كان يتكلم بلغة الروح وبالتالي: " فالطور الأول من أطوار حضارة معينة، الطور الذي نروض فيه الغرائز وتسلك في نظام خاص يكبح جماحها، ويقيد انطلاقها".[12]

ويواصل المجتمع في تطوره فتظم له مشاكل ومستجدات تجبره على الانعطاف نحومنعطف جديد يلبي له حاجياته فإما أن يتطابق على النهضة مثل الحضارة الأوربية وإما نحوالسقوط شأن الحضارة الإسلامية وفي كل الحالات فإن المنعطف هومنعطف العقل غير أن هذا الأخير لا يملك سيطرة الروح على الغرائز وهنا تبدأ الغرائز بالتحرر، ويعتبر مالك بن نبي بلوغ الحضارة يلتقي من وجهة نضر العلل Ethologie البحث عن بدأ مرض اجتماعي معين يجذب انتباه المؤرخين وعلماء الاجتماع بعد، لأن أثاره المحسوسة لا تزال بعيدة وهنا تواصل الغريزة المكبوحة بيد الفكرة الدينية سعيها إلى التحرر، وبهذا تستعيد الطبيعة سيطرتها على الفرد والمجتمع شيئا فشيئا، وعندما يبلغ التحرر تمامه وتسيطر الغريزة بصفة كلية على مصير الإنسان يبدأ الطور الثالث.[13]

في الطور الثالث من الدورة الحضارية: تستقر الغريزة عن وجهها نهائيا وبذالك تنتهي الوضيفة الاجتماعية للفكرة الدينية وتعود الأشياء كما كانت في المجتمع المنحل، وهنا تتمدد دورة الحضارة.[14]

فالدورة الحضارية تبدأ عند دخول فكرة معينة في التاريخ وتنتهي عندما تفقد الروح نهائيا هيمنتها على الغرائز المكبوتة.

ولترجمة هذه الاعتبارات نحصل على صورة يوضحها مالك بن نبي خلال المعلم الديكارتي: [15]

ج - مفهوم الإصلاح:

تعرف مادة الإصلاح من الناحية اللغوية أنها: " مشتقة من الفعل أصلح، صلح، وصلح تدل على تغير حالة الفساد،أي إزالة الفساد عن الشيء ويقال أيضا هذا إصلاح لك أي يوافقك ويحسن ويقال أيضا صالح لكذا، أي فيه أهلية للقيام به وبصفة عامة إصلاح ذات الفساد "...[16]

وللإصلاح عدة معاني منها ما تدل على إصلاح الأراضي، أي تحويل الأرض من جدباء إلى منتجة للمحاصيل، كما تدل على الإصلاح الزراعي بتقييد الملكية الزراعية دون تجاوز حدا معين فإذا حدث تجاوز لهذا الحد يكون نزع الملكية تعويض عادل، ولفض الإصلاح يطلق أيضا على الحركة الدينية، إذ غالبا ما يكون على شكل ثروة، فنجد من الناحية التاريخية الإصلاح الديني في أوروبا

يوحي بثورة دينية حدثت في القرن ال 16 م بدأ بشكل حركة إصلاحية في الكنيسة الكاثوليكية للتحول بعد ذالك إلى حركة عقائدية، عرفت بالبروتستانتية ومن أهم ممثليها لوثر وكالفن.

أما في القرآن الكريم وردت لفظة الإصلاح، لكن بتفاسير مختلفة كقوله تعالى: " قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" .[17] وتفسيرها أن رسول الله (ص) يقول: " لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه، أي فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي وتوفيقي في إصابة الحق فيما أريد إلا بالله أرجع إليه في جميع أموري " .[18] وكذلك لفظ الإصلاح وردت في قوله تعالى: "لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَومَعْرُوفٍ أَوإِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ".[19]

وتفسيرها أن الكثير من كلام الناس ليس في خير إلا من كان كلامه عن صدقه أوأمر بمعروف أوإصلاح بين الناس وقد أجاز الله حتى الكذب إذا أريد به إصلاح ذات البين أي إضفاء الود في العلاقة بين شخصين كانا قد اختلفا.[20]

د – مفهومه عند مالك بن نبي:

إذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامي فإننا نجده حافلا بالجهود، المحاولات في ميدان الإصلاح والتجديد، ومن أبرز الممثلين لفكرة الإصلاح نجد مالك بن نبي الذي وضع مشروعا إصلاحيا قصد الإصلاح والتغيير للخروج من المأزق الغالب على الفكر السياسي العربي الإسلامي وذلك لما يزيد عن قرنين، قصد تحرير العالم مما يعانه من فساد واستعمار الشيء الذي جعله يتخذ موقفا واضحا من رجال الإصلاح فجل المصلحين تجاوزوا السلبيات وحطموا معوقات التقدم، لكنهم لم يستطيعوا وضع خطط للإصلاح وبرامجه ويؤكد بن نبي ذلك:"أن التحديد الإيجابي فهوأن قد وضع لنا مجمله إلا أنه لا يزال غامضا غير محدد ."[21]

فكانت انطلاقته الأولى في مشروعه الإصلاحي من الحركة الوهابية القائمة على فكرة التوحيد وتنزيه العبادة عن كل ما يربطها بالماديات ذلك ما جعلها تتشدد في بعض الجوانب الشرعية والأحكام وكذا المواقف المتطرفة كل ذلك أتى بالدفع إلى حد المغالاة وركز في مشروعه على مسألة الإصلاح السياسي الذي جاء جمال الدين الأفغاني (1839) واعتبره طريقا للتقدم لكون إصلاح الواقع الإسلامي يبدأ من الأرض العربية فهي مهد الإسلام لنزول القرآن فيها، وبالتالي فإن انطلاق الأفغاني من واقع إصلاح الأرض العربية أعطى لحركته سرعة الانتشار فأثر بشخصيته القوية في كثير من الشباب في العالم الإسلامي وانبثقت عن حركته الإصلاحية حركات سياسية ذات نزعة وطنية قائمة على منطق عقلي.

مشروع الأفغاني كان بمثابة بداية النهضة العربية التي أحيت أمواتها وغيرت ما يوجد في النفوس من تقاليد وأدت إلى الانتقال إلى حياة جديدة، فدور الأفغاني لم يقتصر على الإيقاظ والتحريك فقط وإنما الاستنهاض أولا ووضع اللبنات للمشروع المستقبلي ثانيا، فوضع مشروعا ثوريا متكاملا قيمته الأساسية هي التغيير، فنجح في غرس بذوره مشرقا، ومغربا وبذلك اعتبره بن نبي رائد الحركة الإصلاحية والمحرك الرئيسي لها.

تتلمذ على يد الأفغاني محمد عبده (1849-1905م) الذي كان دوره متكامل مع أستاذه الأفغاني، فشاركه في الكثير من مشروعاته، كما اعتمد الإصلاح التربوي الاجتماعي طريقة للنهوض والتقدم، ويرجع بن نبي هذا المنهج إلى البيئة التي نشأ فيها محمد عبده. فواجه مشكلة الإصلاح بعد مواجهته لحقيقة ظروف الحياة الإسلامية، ولحل تلك المشكلة لابد من التركيز على التربية وإعداد الفرد إذ يتم ذلك بالبدء بمسائل علم الكلام أولا ومعالجتها كمقدمة إصلاحية بوضع فلسفة جديدة من أجل تغيير البشرية، واعتبار العقيد الإسلامية متأصلة في الإنسان عبر التاريخ ثانيا لأن صلاح الفرد في عمله بمثابة صلاح المجتمع.

إلا أن بن نبي واجه نقدا لمحمد عبده حين قال لابد من البدء بمسألة علم الكلام: " ظن أن الضروري إصلاح علم الكلام بوضع فلسفة جديدة، حتى يمكن تغيير النفس ... وعلم الكلام ما لا يتصل بالواقع بمشكلة النفس إلا في ميدان العقيدة أوالمبدأ، والمسلم، حتى ما بعد الموحدين لم يتخل مطلقا عن عقيدته، فلقد ظل مؤمنا، وبعبارة أدق ظل مؤمنا متدينا ولكن عقيدته تجردت من فعاليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جاذبية فردية وصار الإيمان إيمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هويملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فعاليتها وقوتها الايجابية وتأثيرها الاجتماعي"[22] . كما أعطى لنا بن نبي صورة ناطقة عن واقع عايشه من خلال الإصلاح الذي جاء به أبن باديس حين تأسيسه لجمعية العلماء المسلمين كونه نقل الثورة إلى ميدان العمل الجماعي.

كما وجه انتقاده إلى المعلمين لما كتبوه بحيث يكون برنامج العمل العربي الإسلامي على مر السنين، لكن بن نبي اعتبره مستحيلا لأنه من سنه الله في الخلق تبدل الأحوال وتغييرها وتقلبها إذن فالثبات مستحيل.

خاتمة:

إن القراءة النقدية لواقع الأمة الإسلامية، تسوق إلينا حقيقة أزمتنا الحضرية بكل أبعادها الحضرية والنفسية والاقتصادية والثقافية، السياسية والتربوية، التي وقفت حجر عثرة أمام كل محاولة في سبيل التقدم والرقي.

فحين نجد الدول الغربية تعيش مرحلة هامة من التحولات والانتقالات الناجحة والتي تأثر منها العالم في ملامحه وتقسيماته، ونتساءل أين نحن في العالم العربي والإسلام من ذالك ؟ هذا التساؤل أدى إلى ضرورة التفكير الجاد في سبل النهوض وفتح ملف حضارتنا لدراسته وتقويمه ومراجعته.

وقد كان مالك بن نبي من خلال أفكاره ونظرياته طموحا إلى التغيير بتجاوز أثر الفكر الغربي على الفكر الإسلامي فوضع يده على الداء لتشخيصه وإيجاد

الدواء المتمثل في حلول أقترحها من خلال مؤلفاته مؤكدا على موقفه أن النظام الجديد الذي ترسي أسسه الدول الكبرى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، ليس هوالنظام المنشود الذي تبحث عنه غالبية الشعوب والدول.

وقد رد جذور هاته الأزمة إلى وجود خلل في النسق الثقافي والفكري كما حدد الدخول في التاريخ وفق منطقه القائم على النص الصريح الذي مصدره القران الكريم:" إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

فهذا النص قد حدد بدقة شروط التغيير وهوتغير النفس الإنسانية وتحريرها من الجمود والتخلف إلى الفعالية الحضارية وقد ركز مالك بن نبي على ضرورة بناء ثقافة سليمة من أجل تحقيق إصلاح حضاري شامل أي تغيير الوسط الثقافي وتحديد المنظومة الفكرية مؤكدا على ضرورة الإنسان في المجتمع.

وبالرغم من أن أفكار مفكرنا العظيم لم تجسد في واقعنا فإنها أسست انطلاق للذين يعملون على إرساء قواعد متينة للإقلاع الحضاري للأمة، كما أصبحت أفكاره موضوع بحث ودراسة في الدول الغربية وهذا إن دل على شيء إنما يدل على حجم الأفكار التي طرحها ووضعها مالك بن نبي رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

النتائج والتوصيات:

- لبناء نهضة جديدة يجدر الارتكاز بداية على الإسلام كمنهج (عقيدة وعمل) في كل المجالات لأنه الموجه والضابط في حركة التحضير ومناهج الأصالة الملتزمة بالتراث والمحددة لتطلعات المستقبل وكل ذالك يمثل الإطار الحضري للعالم الإسلامي، وكذلك أساس المشروع الإصلاحي القائم على خطوات أصلاحية نحصرها في اتجاهين : الاتجاه الأول: دراسة الماضي

دراسة واعية مع فهم منتجاته، لأخذ كل ما هوإيجابي وترك كل ما هوسلبي وإلغاء أثره في الواقع الثقافي والفكري.

الاتجاه الثاني: الالتزام بإطار القرآن الكريم والسنة النبوية إذ لابد من تنظيم تعليم القران لأنه يوحي من جديد إلى ضمير المسلم الحقيقة القرآنية إلى التزام سلوك السلف الصالح لتجديد ميكانيزمات التطور الاجتماعي في كل مجالات الحياة.[23]

- إن المشروع الإصلاحي لابد أن يتم من خلال تصفية العادات والتقاليد وكذالك الإطار الخلقي والاجتماعي من العوامل القاتلة لنموالعوامل الحية الداعية إلى الحياة ولا يتم ذلك بفكر جديد. لأن المنطلق لكل إصلاح ونهوض إسلامي إنما يبدأ من إصلاح مناهج الفكر لدى المسلمين، وبناء النسق الثقافي الإسلامي أي إصلاح عالم الأفكار وتنقيته لتحقيق الأصالة الإسلامية وتصويب الرؤية الحضارية وتمكن الأمة من الشهود الحضاري وبناء العقل القادر على استلهام الأصالة وهضم الحداثة وتمثلها معا في مشروع حضاري إسلامي معاصر متكامل متحرر من أزمة الفكر وأوهامه وخطأ المنهج وانحرافاته ومدرك لأضرار الغياب الثقافي وأفاقه وضواغط القصور الحضاري وإصاباته.[24]
- كما أن الأفكار لابد أن تقترن بالتطبيق لأن اقتران الفكر بالعمل هوأساس التقدم، ولابد على الثقافة من إعادة التوازن بين أنا الفرد وبين قيم الكم والكيف ،لأن هذا التوازن يساهم في تحول الأفكار إلى عمل إضافة إلى ضرورة وجود الأصالة كمنطلق لصنع استقلال حضاري، في كل المجالات من أجل تحديد الأهداف الموجودة، وكان ذلك كل ما جاء في مشروعه الإصلاحي الذي تشكل أسسه قواعد المنهج لبدأ حركة بناء جديدة وصنع تاريخ يؤدي إلى قيام الحضارة.

الهوامش:

(*)- مالك بن نبي: هومفكر إسلامي عالمي، ولد سنة 1905 في مدينة قسنطينة في الجزائر، حيث تابع فيها دروسه الأولى، ثم انتقال بعد إنهاء دراسته الثانوية إلى باريس (فرنسا) حيث تخرج سنة 1930 كمهندس كهربائي. ولقد إتجه إهتمامه منذ البداية نحوتحليل الأحداث والأوضاع المحلية والعالمية التي كانت تحيط به. وقد أعطته، في هذا الإطار، ثقافته الواسعة والممنهجة قدرة على إبراز مشكلات العالم المتخلفة باعتبارها قضية حضارة بالأساس. فوضع بذلك مؤلفاته تحت عنوان " مشكلات الحضارة ". في باريس أصدر بالغة الفرنسية: الظاهرة القرآنية، لبيك، شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي، الفكرة الإفريقية الأسيوية، بمناسبة إنعقاد مؤتمر باندونج، وفي سنة 1956 سافرة إلى القاهرة حيث طبعة له وزارة الإعلام هناك بالغة الفرنسية كتابه الموسوم بـ" الفكرة الإفريقية الأسيوية ". عمد في القاهرة بعد إتصاله بالعديد من الطلبة إلى ترجمة مؤلفاته الأولى إلى العربية، ثم أصدر بقية مؤلفاته باللغة العربية بعد ترجمة بعضها وكتابة بعضها الآخر باللغة العربية مباشرة، إنتقل إلى الجزائر سنة 1963 حيث عين مدير للتعليم العالي، وأصدر فيها المؤلفات التالية: أتفاق جزائرية ، يومية شاهد للقرن، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي المسلم في عالم الاقتصاد في سنة 1967 إستقالة من منصبه ليتفرغ بذلك للعمل الفكري وتنظيم ندوات فكرية. توفي بتاريخ 1973/10/31 في الجزائر.

1 – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ط4 ، دمشق ، الفكر ، 1987 ، ص 83 .

2 – الدكتور جميل صليا ، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية ، ج1 ، الشركة العالمية للكتاب ، 1994 ،ص 320.

3 – إبن خلدون ، مقدمة إبن خلدون ، ط1 ، بيروت 2003 ، دار الفكر ، ص 174 .
4 – محمد عبده المعطي وآخرون ... ، تاريخ العلوم والحضارة الإسلامية ، ط1 ، جامعة الإمارات العربية المتحدة ، ص25 .
6 – أسعد السحمراني ، مالك بن نبي مفكرا إصلاحتيا ، درا النفائس ، بيروت ، ط1 + ط2 (1984 – 1986) ، ص 134 نقلا عن ملك بن نبي ، النجدة ص 05 .
7 – مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ط3 ، دمشق ، دار الفكر 1977 ، ص 23 – 24 .
8 – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، 50 .
9 – مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ترجمة عبد الصبور شهين ، دمشق ، دار الفكر ، 1981 ، 198 .
10 – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص 144 .
11 – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص 73 .
12 – مالك بن نبي ، مجتمع ، ص 102 .
13 - مالك بن نبي ، مجتمع ، ص 104 .
14 – نفس المصدر السابق ، ص 184 .
15 – شروط النهضة ، ص 74 .
16 – محمد طهاريت ، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، الجزائر ، الدار التونسية 1984 ، ص 11 .
17 – القرآن الكريم ، سورة هود ، الآية 88 .
18 – إبن كثير ، تفسير القرآن ، ضبطه وخرج أياته الدكتور محمد عبد الكريم الديمشقي ،ج2 ، سوريا ، دار القام العربي 2004 ص455 .
19 – القرآن الكريم ، سورة النساء الآية .114

20 – ابن الكثير ، مرجع سبق ذكره ، ص 564 – 565 .

21 – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ص 69 .

22 – مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ص55 .

23 – مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ص 72 .

24 – جابر العلواني ، إضلاع الفكر الإسلامي ، الجزائر ، دار للطباعة والنشر والتوزيع ، عين مليلة 1981 ، ص 193 .